مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديميةISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 787-802

مقاربة ثقافيّة لقصيدة "عن إنسان" لمحمود درويش

A cultural approach in Mahmoud Darwish's poem "About a Person"

نسيمة كريبع، المركز الجامعي ميلة ، الجزائر

kribaa.nassima@centre-univ.dz

مخبر الدراسات الأدبية و النقدية

تاريخ إرسال المقال: 19-01-2022 ...تاريخ قبول المقال: 25-05-2022

الملخص: تهدف هذه الدراسة لتقديم مقاربة ثقافية لقصيدة "عن إنسان"لمحمود درويش ،حيث من المعروف أنّ نصوصه الشعرية تحمل زخما ثقافيا وفكريا وأنساقا مضمرة ثاوية خلف التشكيل اللغوي والمنظومة الرمزية والتعالقات التي يوظفها سعيا لخلق مدارات دلالية بين الشاعر والمتلقي من جهة، وبين النص الشعري والمتلقي من جهة أخرى ،فلئن كانت معظم المناهج المعاصرة تبحث عن الجمالي الفني، فإن المنهج الثقافي ينفرد بالبحث عن المضمر الثقافي والمغيّب الفكري داخل النص الشعري، ويُعنى بالمؤلف والسياق والمقصدية والقارئ ،وبالتالي سيكون منهجا مناسبا للبحث عن المعاني التي تبثها الأنساق الثقافية المخبوءة في هذه القصيدة،التي تعدّ اختزالا لما يحدث من صمود ومقاومة للفلسطينيين ضدّ انتهاكات العدوّ من سلبٍ للأرض والهوية والحرية.

الكلمات المفتاحية: الثقافة ؛الأنساق؛الجملة الثقافية؛الإحالات السياسية.

Abstract: This study presents a cultural approach to Mahmoud Darwish's poem "About a Person", where his poetic texts give cultural and intellectual richness, implicit formats, and messages between the poet and the recipient, and between the poetic text and the recipient.The cultural approach searches for the cultural implication of the poetic text, and is concerned with the author, the context and the reader, and therefore it will be an appropriate approach to search for the meanings that the cultural patterns impart in this poem, which describes the steadfastness and resistance of the Palestinians against the enemy’s violations of land, identity and freedom.

Key words : cultur; formats; cultural sentence; political referrals.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديميةISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 787-802

مقدمة:

أثبتت الدراسات الثقافية المعاصرة في مجال النقد الثقافي استجابة الشعر العربي المعاصر ولا سيما الشعر الفلسطيني للمتغيرات الاجتماعية والسياسية، بجاهزيّته الدائمة للتعبير عن التاريخ والواقع ،ومواكبة الأحداث الطارئة والمواقف والتحولات الاجتماعية بشكل فنيّ جمالي،وذلك لما يمتاز به من خصائص تجريبية على مستوى الشكل والمضمون واللغة،فقد أثبت الشعراء الفلسطينيون المعاصرون الذين عايشوا مختلف الانتهاكات الاستعمارية قدرتهم على تضمين قصائدهم حمولات فكرية عميقة بتوظيف المرجعيات الثقافية بشكل ظاهر أومضمر، لتكون النصوص الشعرية التي يكتبونها بمثابة الوثائق التاريخية المدوّنة لمختلف الأنساق الاجتماعية والسياسية والفكرية والدينية والتراثية ،وذلك كإستراتيجية بنائيّة تُستعمل بوعي فنّي لتفعيل الحضور الثقافي والفكري داخل النصوص الشعرية،وضخّها بطاقات دلالية أكثر تشعبا وتعقيدا.

وهو ما ميّز التجربة الشعريّة للشاعر محمود درويش الذي لُقِّب بشاعر القضية الفلسطينيّة،حين اختار الشعر سبيلا للمقاومة،ولأنّ«التحدي الذي يواجهه الشعبُ الفلسطيني وشعراؤُه يتخذ صورة الاجتثاث والاقتلاع والنفي الحضاري واستلاب الهوية والوجود،فإنّ القصيدة المقاومة في المقابل تصبح سلاحا من أسلحة التحدي المضاد»[1] ولذلك كانت قصائد درويش ذات بنيات عميقة،تستتر ضمنها الرؤى الفكرية والرموز بمختلف أنواعها ،لتغدو أشبه بالكنز المعرفي الذي يغري النقاد والقراء للسير نحوه وفك شفراته ،بالعودة إلى مرجعيات الأحداث والأزمنة،ومعاودة إسقاطها على الواقع للقبض على الرسالة التي يمررها من وراء ذلك التعانق والتعالق الثقافي مع التاريخ الإنسانيّ والتراث الأسطوري من جهة،ومع الواقع الاجتماعي/السياسي والراهن اليومي من جهة ثانية،وذلك ضمن توجّه وجوديّ،يثبت أحقيّة الشعب الفلسطينيّ بأرضه وهويته،رغم كل القوى المعادية والعقبات والتجاوزات والانتهاكات.

وتبقى قصيدة "**عن إنسان**" من ديوان "**أوراق الزيتون**" لمحمود درويش من أهمّ النماذج الشعرية ذات التوجه الإنساني الثريّة بأنواع الرموز والإحالات الثقافيّة المتعددة،ومن الطبيعي أن تساهم القراءة التحليلية وفق المنهج الثقافي في إعادة بسط الخيوط الدلالية المشكلة لهذه هذه القصيدة واستخراج المضمر الثقافي

[1] أنور الشعر، توظيف التراث في الشعر الفلسطيني المعاصر(2000- 2010) ،مطبعة السفير ،الأردن،ط1، 2013، ص348.

داخل تركيباتها اللغوية الجمالية،بعد أن صارت « الدراسة الثقافية فعلاً ابستيمولوجيا قادرا على تحقيق الوعي بالذات وبالآخرين وبالعالم وبالمحيط »[1] باعتماد معطيات النقد الثقافي .

وعليه ستقدّم الدراسة مبحثا عن ملامح النقد الثقافي ،والقراءة الثقافية للنصوص الشعرية وما تخفيه من أنساق مضمرة،وصولا إلى المبحث الثاني الخاص بتقديم مقاربة ثقافية لقصيدة "عن إنسان"،وذلك بالاعتماد على المنهج التاريخي في الجزء النظري لبسط المفاهيم الأساسية للنقد الثقافي،وكذا الاعتماد على آليات المنهج الثقافي التحليلية في الجزء التطبيقي بحثا عن الأبعاد و الإحالات والأنساق الثقافية التي تخفيها البنية اللغوية للقصيدة ،ومحاولة تأويلها وإرجاع النص الشعري إلى أصل مرجعياته الثقافية التي قادت محمود درويش إلى تكوينه .

المبحث الأول:قراءة النصوص الشعرية من منظور الأنساق والتعددية الثقافية

تهتم المقاربات الثقافية بالكشف عن الأنساق المضمرة والتنويعات الثقافية التي تقوم عليها النصوص الشعرية،فـ«التعامل مع النص الأدبي من منظور النقد الثقافي يعني وضع ذلك النص داخل سياقه السياسي من ناحية وداخل سياق القارئ أوالناقد من ناحية أخرى»[2]ليصبح مساحة ثقافية مكتظة بالعلامات النسقية المضمرة التي يتولى القارئ إبرازها ،وقد بات من الواضح وجود تيمات مفتاحية ومحاور أساسية تشكل محور المقاربات الثقافية للقصائد ،وتصبّ في سياق الحفر عن المخبوء وإظهاره ضمن ارتباطاته الفكرية المختلفة انطلاقا من البنى اللغوية التي قد تبدو للوهلة الأولى بريئة من كل انتماء ثقافي غير معلن،يتولى الناقد فيما بعد كشفه و تأويله.

المطلب الأوّل:القراءة الثقافية للنصوص الشعرية

حين يكتب الشاعر قصيدته فإنه ينقل تجربته الحياتية بما تحمله من أحاسيس وتجارب وينقل رؤيته للواقع بما تختزنه من أفكار ورؤى وتمثّلات ثقافية ،فتغدو بذلك التشكيلة الثقافية التي يقدمها هيكل ومركز النص الشعري ،وما اللغة والبنية النصية إلا وسيلة لتوصيل التراكمات والسمات الثقافية المرتبطة أساسا بالبيئة والتاريخ والسياسة والدين، وإذ تقارب القراءة الثقافية النص الأدبي ،فهي بهذا« تعلن فاعلية الثقافة ،وولادة المؤلف بعد أن أكد بارث Roland Barthes موت المؤلف The death of the

---

[1] عبد الرحمن التمارة، القراءة الثقافية للنص السردي التراثي عبد الفتاح كيليطو نموذجا، أعمال المؤتمر الدولي الخامس لكلية الآداب "التعددية الثقافية في اللغة والأدب،ج2 ،جامعة الزيتونة ،الأردن ،17. 18 .19 /نوفمبر/2015ص250.

[2] حفناوي بعلي،مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن (المنطلقات،المرجعيات ،المنهجيات)،ط1 ،دار الاختلاف للنشر ،الجزائر ،ص47.

author عام 1968»[1] وما ولادة المؤلف من جديد إلا فرصة لإعادة قراءة النص الأدبي وفق المرجعيات السياقية والتمثلات الثقافية المؤسسة له بالأساس.

لقد صار من الواضح في النصوص الشعرية المعاصرة وجود تداخل فنيّ جمالي بين الأدب و الثقافة بمختلف معطياتها وتجاذباتها ومصادرها ،حيث أصبحت« العلاقات السياسية و الاقتصادية من أهم آليات التواصل الثقافي ،فعبر هذه العلاقات يتم تبادل الكثير من الأفكار والآراء والخبرات التي تشكل روافد تغذي منابع التواصل الثقافي ،وما يعزز ذلك أنّ الأمور السياسية تختلط بالأمور الاقتصادية والاجتماعية والثقافية »[2] ،كما أنّ الاهتمام بالثقافة وأبعادها وإفرازاتها الفكرية وعلاقاتها بالبعد السياسي والاقتصادي لم يعد حكرا على المجالات الاجتماعية،بل حتّى الدراسات الأدبية والنقدية راحت تتبنى المعطيات الثقافية كآليات تحليلية للنصوص و الخطابات الإبداعيّة و خاصة الشعرية ،حيث« بدأ الحديث عن إستراتيجية نقدية جديدة تشتغل وفق منطق الاختلاف والمغايرة ،يتحول النص الأدبي معها من سقفه اللغوي الجمالي إلى تجربة أوعلامة ثقافية ،يستمد سلطته وقوته من حضورها فيه ،ممّا يعني الانتقال من قراءة النص بوصفه نصا أدبيا يحمل بعض المعاني الجمالية و الأدبية ،إلى قراءة النص بوصفه خطابا ثقافيا يتعالق فيه الجمالي مع التاريخي والاجتماعي»[3]،إذ لا يمكن فصل المضامين الثقافية واستبعاد دلالاتها أثناء المساءلة التحليلية للنصوص، فهي و بلامنازع جزء لا يتجزأ من النسيج العام لها.

ولأن مؤلف النص الأدبي يتأثر بثقافة الراهن الواقعي الذي يشهد حالات من التجاوز وعدم الاتزان نتيجة المطبّات السياسية والاجتماعية التي تعرقل المسار الحضاري للمجتمعات فإنه من الطبيعي والضروري أن يتمثّل تلك المظاهر في إبداعه مازجا إياها بطاقات التخييل والتناص والتجميل اللغوي والأسلوبي ،ولذلك « سعت الدراسات الثقافية cultural studies منذ ظهور علاماتها الأولى في بداية الستينات إلى فحص العلاقة بين الكتابة والمجتمع في بنى النصوص (...) كما سعت هاته الدراسات في

[1] يوسف عليمات،النسق الثقافي قراءة في أنساق الشعر العربي القديم،د.ط ، منشورات وزارة الثقافة ،عمان ،الأردن ،2014 ,ص12.

[2] نورية الرومي ،التواصل الثقافي والعولمة مفاهيم و آليات ورؤى، الكتاب الجماعي (التثاقف في زمن العولمة)،إشراف عبد المجيد عمراني،منشورات مخبر حوار الحضارات ،و العولمة،جامعة باتنة1،مطبعةمؤسسة سرار للطباعة الصناعية،باتنة،الجزائر ،2011، ص160.

[3] عائشة بومهراز،نحو وعي نقدي بقراءة ثقافية للنص الإبداعي، مجلة الناص، منشورات جامعة جيجل،الجزائر،ع9 ، أفريل 2010 ،ص87 .

الآن نفسه لاستجواب منظومة القيم و الأعراف و المرجعيات السائدة في الثقافة»[1] وإعادة تفكيك الخطاب الأدبي بحسب آليات النقد الثقافي والعودة به إلى أسئلة المؤلف الذهنية التي أدت به إلى تمثُّل معطيات ثقافية بعينها.

وبذلك يمكن القول إنّ« النقد الثقافي هو مزيج من الجمالي والتنسيقي،وهو يتناول النص الإبداعي والنص الثقافي معا ،فنحن حين نحلل النص الأدبي نحلل الجمالي فيه في المستويات اللسانية والبلاغية والإيقاعية والسيميائية وغيرها،كما نحلل الأنساق المعلنة و المكبوتة ونقرأ الشيفرات والمرجعيات والسياق ،وهكذا يتكامل النقد الأدبي مع آليات النقد الثقافي »[2]ومن ثمّ يتعامل سؤال الثقافي مع النص الأدبي بوصفه فسحة كلامية متجددة ومادة للبحث في المعرفة تكشف عن تداخل الجمالي مع الفكري ،وما يحمله هذا الأخير من خلفيات وسلوكيات ومعطيات ومفاهيم كمكونات للثقافة السائدة[3] لتنتظم تلك المكونات داخل النصوص الأدبيّة تحت مسمى الأنساق الثقافية، حيث «إنّ مشروع هذا النقد يتجه إلى كشف حيل الثقافة في تمرير أنساقها تحت أقنعة ووسائل خافية ،وأهمّ هذه الحيل هي "الحيلة الجمالية" التي من تحتها يجري تمرير أخطر الأنساق ،وأشدها تحكما فينا،وهذا لن يتسنّى إلا عبر ملاحقة الأنساق المضمرة، ورفع الأغطية عنها »[4]فتتجلى بذلك الحقائق الثاوية خلف المنظومة اللغوية، ويتمّ كشف المستتر الثقافي الذي انبنى على أساسه النص الإبداعي.

المطلب الثاني :الأنساق المضمرة والتعدد الثقافي في النصوص الشعريّة.

إذا كانت الثقافة بتجلياتها المختلفة وتعددها الفكري تتيح للشاعر التعبير عن الواقع والماضي والمستقبل بشكل أوسع وأعمق ،فإنها وبنسب أكبر تتيح للمتلقي فرصة الوعي بأساليب التأويل الدلالي من خلال البحث عن البنى والأنساق الثقافية التي ساهمت في تشكيل النص الأدبي ،حيث« أنّ وعي القارئ/الناقد بالبعد الثقافي يساعده على تجاوز حدود ما يقرأ ،ويجعله في حالة جدل وصراع مستمر مع ما هو كائن ومستقر في الفكر والثقافة ،كما يلفت انتباهه أثناء ممارسة طروحاته النقدية على النصوص الإبداعية إلى ذلك المنسي والمهمش في المجتمع وهكذا يلعب الوعي الثقافي دورا رئيسيا في تحقيق

---

[1] يوسف عليمات،النسق الثقافي قراءة في أنساق الشعر العربي القديم،ص24.

[2] حفناوي بعلي،مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن (المنطلقات،المرجعيات ،المنهجيات)،ص 52.

[3] عائشة بومهراز،نحو وعي نقدي بقراءة ثقافية للنص الإبداعي،ص90 .

[4] حفناوي بعلي،مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن (المنطلقات،المرجعيات ،المنهجيات)،ص50 .

انجازات معرفية أثناء فعل القراءة» [1]أين تتحول الجمل والمفردات النحوية إلى جمل ومفردات ثقافية نسقية مكثفة ومتنوعة تحمل أبعادا وإحالات مخبوءة مرتبطة بالتاريخ والمجتمع والواقع والدين والسياسة في أغلب الأحيان،ومن أهمّ محددات النقد الثقافي نجد:

أوّلا: النسق المضمر: وهو من أهم محددات النقد الثقافي في مقاربة النصوص الشعرية التي تختزل جوانب هامة من الحياة،إذ« يمثل عنصرا أساسيا للتحول النظري والإجرائي من النقد الأدبي إلى نقد البعد الثقافي،فالأمر يتعلق بقراءته وكشفه،وطرح أسئلة لم تطرح حوله من قبل»[2] وذلك لأسباب مرتبطة بالأساس بوجود خروقات ومفارقات تتمثّلها النصوص تمثلا تلميحيا غير مباش٧،لأن الطرح المباشر يعدّ تجاوزا للمسموح به،حيث« أن منظومة الأنساق الثقافية المكونة لذهنية أية أمة من الأمم تبقى كامنة في نصوصها الأدبية الرسمية و الشعبية،فهي تمثل إحدى الحقول الخصبة لنشاط وتمظهر مختلف الرواسب والمعطيات والأنساق(...) والواقع إن للنص الأدبي استراتيجية في حجب حقيقته وذاته،بحيث لا يعلن ولا يصرح مباشرة عما يريد التعبير عنه و الوصول إليه،بل يبقى يتستر ويتماهى بطروحاته ومنطوقاته »[3]التي تندرج بالأساس ضمن أنساق وأنظمة ثقافية تتراوح بين العام والخاص ،بين الحصار والانعزال والتهميش والتحرر،وبين السلطة الذكورية والتبعيّة النسوية وبين الفردي الخاص والشمولي بأبعاده الإنسانيّة.

ثانيا: التعدد الثقافي: تتنوع الظواهر الثقافية في النصوص الشعرية المعاصرة وفق ما يطرحه مصطلح "التعددية الثقافية" التي تولي« الاهتمام بالظروف الملائمة للعلاقة مابين مختلف الجماعات الثقافية ، فالمعايير التي تحكم مطالب كل منها لا يمكن أن تستمد من ثقافة واحدة، لأن كل جماعة منها تمتاز بمعاييرها الخاصة ،لذا ينبغي أن تستمد من خلال الحوار المفتوح و المتكافئ مابين الجماعات ودون استثناء لأية منها»[4]ومردّ ذلك أنّ فعل الإقصاء الثقافي يساهم أساسا في خلق الفوضى الفكرية،و زعزعة الأمن الثقافي العام كما تشير التعددية الثقافية في الأدب عموما ،وفي الشعر خصوصا إلى ظاهرة التنويع في أخذ الظواهر الثقافية واستلهامها بأبعادها داخل المنجز الشعري؛إمّا بشكل معلن ظاهر أوبشكل

---

[1] عائشة بومهراز،نحو وعي نقدي بقراءة ثقافية للنص الإبداعي،ص91.

[2] المرجع نفسه،ص90 .

[3] المرجع نفسه ،ص88.

[4] حسام الدين علي مجيد ،إشكالية التعددية الثقافية في الفكر السياسي المعاصر-جدلية الاندماج و التنوع- ،منشورات مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت ،ط1 ،2010،ص161.

مضمر خفي، ومما لا شك فيه أنّ هذا المصطلح له ارتباط بالاختلافات الثقافية بين الجماعات وما ينشأ عن هذا الاختلاف من صدامات تتجلى في النواحي الاجتماعية و الفكرية و الدينية و السياسية الاقتصادية وغيرها...

وبذلك تكون الثقافة معيارا لنشوء هذا التعدد الثقافي ،حيث تُعنى بالمعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والقوانين والأعراف وأساليب التفاعل الاجتماعي بين الأفراد[1]هذا وتساهم الثقافة بمفهومها العام في تعيين « طرائق الحياة التي طورها الإنسان في المجتمعات على مدار التاريخ ،بينما تَعني بمفهومها الخاص أسلوب الحياة السائد بين شعب من الشعوب من حيث أساليب التفكير والسلوك والمشاعر من خلال ما تجسده العقيدة والقانون واللغة والفن والتكنولوجيا،كذلك تشير الثقافة بمفهومها الضيق إلى العرق والعمر والنوع والنشأة ،بينما تشمل الثقافة بمفهومها الواسع القيم والمعتقدات والممارسات السلوكية »[2]،وهنا يكون التعدد والتنوع من السمات الأساسية لرسم حدود الثقافة،و بالتالي فالتنوع الثقافي القائم على التعايش من شأنه إتاحة الحقوق لأصحابها وينشد حرّية تقرير المصير،ومناهضة الانتهاكات الممارسة على الشعوب.

ولا شكّ في أنّ النصوص الشعريّة المعاصرة تعدّ من أكثر الأجناس الأدبيّة استجابة لاستيعاب قضايا التعددية الثقافية وكذا تمثّل الملامح الثقافية السائدة ،و توظيفها خلف البنية اللسانية من خلال إخضاعها لتقنيات الإضمار والإخفاء والترميز، التي تتولّى تغطية المعنى برداء الغموض الفنّي والانحراف التدليلي بعد أن«أصبحت القصيدة مزيجا فنّيا يحمل في طيّاته العديد من الدلالات و المعاني والأفكار التي أصبحت تتجاوز المألوف إلى غير المألوف»[3] في محاولة لتمرير رسائل مشفرة يتلقاها المتلقي حول قضايا مختلفة تجمعها و توحدها الإحالات الثقافية.

المبحث الثاني: التحليل الثقافي لقصيدة "عن إنسان":

يبحث المنهج الثقافي عن المعنى المخبوء المستتر خلف المنظومة اللسانية والجمالية للمتون الشعريّة فـ«القراءة الثقافيّة تبدأ من النص لتربطه بأنساق ثقافته ،وبالتالي يصبح كل من السياق الاجتماعي

---

[1] مجموعة من المؤلفين، نظرية الثقافة ،ترجمة علي سيد الصاوي،د.ط ،سلسلة كتب عالم المعرفة ،منشورات المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ،الكويت ،يوليو 1997 ،ص09.

[2] مفيدة إبراهيم علي عبد الخالق،الناقد بين التعددية الثقافية و تعددية النظرية النقدية، أعمال المؤتمر الدولي الخامس لكلية الآداب "التعددية الثقافية في اللغة والأدب،ج2 ،جامعة الزيتونة ،الأردن ،17. 18 .19 /نوفمبر/2015ص463.

[3] رضا عامر،قضايا النص الشعري الحديث والمعاصر قضايا النص الشعري الحديث و المعاصر،دار أسامة للنشر،الأردن،ط1 ،2018 ،ص103.

والسياق النصيّ ضروريا لفهم النص،فالسياق النصيّ هو الذي يتحصل منه معنى القصيدة (...)أمّا السياق الاجتماعيّ فيتّصل بالجانب البراجماتي للنصوص،وهو يتّصل بتلك الدلالات التي لا تأتي من النص،ولكنّها دلالات ضمنيّة تأتي من خارجه»[1] أي أنّ التراكيب الشعرية في حلّتها الفنيّة تخفي مضامين مرتبطة بأبعاد فكرية و دينيّة ،و تاريخية و سياسية ...

المطلب الأول:قراءة في العنوان (نسق الإنسانية/القيم)

يشكّل العنوان الشعري أهمّ العتبات النصّة المساهمة في تفكيك غموض النص ،فهو مؤشر تأويلي ومكوّن بنائيّ يضبط انسجام المعنى،إذ يمارس مهمة التدليل والتوجيه أثناء عملية القراءة و التحليل باسطا نفوذه الدلالي و هيبته الإجرائية،كما « تبدأ منه عملية التأويل فيسهل على الملتقي قراءة المتن بناء على ما علق بذهنه من قراءته»[2] فيشكل حينها خلفية معرفية يتسلح بها المتلقي كدرع لتخطي المزالق التأويليّة التي قد تحيد بالقراءة النقدية عن مسارها الحقيق،كما يخفي العنوان في الشعر المعاصر أكثر الرموز الثقافية عمقا و تأثيرا ،حيث« يؤسس لمعان متقاطعة بين ما هو ظاهري و باطني »[3]،ذلك أنّ «الاستعمال الفنّي للكلمات في العنوان الشعريّ هو بمثابة تكثيف لمعانيها،وذلك بوضعه في حقول دلاليّة جديدة(...)أي أنّه تحويل وإغناء لما وضعت له الكلمات في الأصل،وخروج عن الحدود الدلاليّة التي رسمتها لها المعاجم»[4]وفي عنوان قصيدة"**عن إنسان**"تنفلت الدلالات من قبضة الغموض والضبابية نحو مسارات البوح بعد ربط علاقات تشابكية بين عنوان القصيدة وعنوان الديوان الشعري "**أوراق الزيتون**" لتشكيل وحدة رمزية ثقافية تجمع **الإنسان** كمكون وجودي يوحي بالكينونة الأزلية للوجود البشري بالمكون الشعري ""**الزيتون**" الذي بات من مؤسِّسات القول الشعري عند درويش ،متحولا إلى نسق إيديولوجي مرتبط بالهوية الفلسطينية المغيبة من طرف الوجود الكولونيالي الصهيوني،ورمز لثقافة الصمود والتحدي.

---

[1] معتز سلامة أحمد عبد الله،قراءة ثقافية في معلقة جاهليّة (معلّقة النابغة الذبياني نموذجا) ،كتاب المؤتمر الدولي الخامس لكليّة الآداب"التعددية الثقافيّة في اللغة و الأدب،ج2 ،جامعة الزيتونة الأردنيّة ،الأردن،17-19نوفمبر2015،ص486.

[2] رضا عامر،سيميائية العنوان في ديوان سنابل النيل لهدى ميقاتي،مذكرة ماجستير تخصص أدب حديث و معاصر،جامعة محمد خيضر بسكرة،2008 ،ص33.

[3] شعيب حليفي،هوية العلامات في العتبات و بناء التأويل،ط1 ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ،المغرب ،2005،ص6.

[4] رضا عامر،المناهج النقديّة المعاصرة،ط1 ، دار أسامة للنشر،الأردن ،2020 ،ص159.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديميةISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 787-802

وإن كان العنوان يشكل الواجهة الإشهارية،سيظل المتن هو المرجع الذي «يكشف عن خبايا العنوان و غموضه الأوّليّ ،كما يحدد انسجام العنوان مع النّص»[1]والملاحظ في هذه القصيدة أنّ الانسجام كان ظاهرا بين العنوان والمتن النصيّ؛حيث أخذ المعنى مسلكا تصاعديا تدريجيا في فكّ رمزية العنوان، وتقديم أجوبة عن التساؤلات التي يضمرها ،فالحديث عن الإنسان في فلسطين هو حديث عن الإرادة والتحدي في مجابهة العدو،كما تظهره هذه الأسطر الشعرية: [2]

أخذوا طعامه ،و الملابس،و البيارق

ورموه في زنزانة الموتى،

(...) يا دامي العينين ،و الكفّين !

إنّ الليل زائل

لا غرفة التوقيف باقية

ولا زرد السلاسل!

وبذلك يتحول العنوان إلى صوت ارتدادي يصاحب كل تركيب لغوي لرسم أبعاد و سياقات ثقافية مختلفة ،فمحمود درويش في عنوان قصيدته كان يمزج ويعتصر معطيات اجتماعية وسياسية وتاريخية قبلية ،ويعوضها بشيفرات ثقافية كامنة في شبه جملة لغوية غير مكتملة المعنى تقديرها "**حديث عن إنسان**"، فورود العنوان بهذه الصيغة التركيبية يوحي بانكسار الذات الإنسانية التي تعاني الضعف والتهميش وتبحث بشكل دائم عن سبل التحرر ،وإعلاء مكانة الإنسان ،وضمان حقوقه،حيث من المعلوم «أنّ الإنسان هو عيار كل شيء،وأنّ الطبيعة الإنسانية هي مصدر كل القيم وتسعى إلى تنظيم العلاقات الإنسانيّة على أساس من المساواة والاحترام المتبادل والحرية لكل البشر دون تمييز »[3] وطبيعي بعد ذلك أن يكون الإنسان محور الخطاب الشعري ،وتكون الإنسانية جوهر الوجود ومحور الثقافة، ذلك أن الثقافة« ليست نظرية في المعرفة فقط،بل هي فلسفة الإنسان،وفلسفة المجتمع ،وفلسفة السلوك (...)فالثقافة محيط

[1] شعيب حليفي،هوية العلامات في العتبات و بناء التأويل، ص21.

[2] محمود درويش،أوراق الزيتون،الأعمال الكاملة، ط14 ، الأعمال الكاملة، المجلد الأول ، دار العودة ،بيروت ،1996 ،ص13.

[3] أنور الشعر،النزعة الإنسانية في الشعر العربي المعاصر في فلسطين و الأردن200-2010،ط1 ،مطبعة السفير ،منشورات وزارة الثقافة،الأردن ،2016،ص18.

يتلقى الأفراد في إطاره هوياتهم ، وطريقة تفكيرهم ونمط معيشتهم بالارتباط مع نسق القيم الاجتماعي»[1] لتتسع مساحة التأويل إلى وحدة ثقافية كبرى ترتبط بالإنسانية الكونية المستلبة وصراعات المستضعفين وسبل التحرر والصمود في العالم.

المطلب الثاني: قراءة في المتن النصيّ (نسق الاستلاب/المقاومة)

قدمت الفاتحة النصية مشهدا تصويريا يخفي دلالات نسقية مرتبطة بإحالة سياسية تكشف الهيمنة الاستعمارية والتزييف التاريخي للحقائق ،وبتكميم كل صوت وطمس كل حركة مقاومة بقول درويش:[2]

وضعوا على فمه السلاسل

ربطوا يديه بصخرة الموتى،

وقالوا :أنت قاتل !

يصوّر الشاعر حال الإنسان الفلسطيني الرافض لأشكال الاستلاب المادي والفكري الممارس على الأرض والتاريخ والتراث من طرف المحتل الغاصب ،الذي يقابل كلّ محاولة للتصدي والمقاومة بالقتل والاعتقال واستعمال العنف وهو ما تثيره التبديلات الاستعارية للتراكيب الإسنادية لخلق مشاهد تصويرية مكثفة تتيح للقارئ لمس الألم و تذوق مرارة المعاناة ،حين تنزاح كلمة **السلاسل** في هذا النص ليس لتقييد الأيدي بل لتكميم الأفواه الصارخة المطالبة بالتحرر،وحين تكون **الصخرة** بثقلها الدلالي تقييدا للأيدي وأسرا للإنسان،في إحالة إلى تعفن الواقع السياسي،الذي يتمّ تلميع صورته أمام الرأي العالمي ،فيما يشهد الإنسان انتهاكات واضحة في الداخل،بسبب سياسة الإسكات التي ينتهجها المحتلّ،من خلال إبرام معاهدات السلام الزائف،ونعت من ينشد الحريّة بالقاتل .

لتكتمل صورة المفارقة الوجودية من خلال ثنائية **(الحياة/الصمت)**،في إسقاط لأسطورة **سيزيف** وهو يقضي عقوبته الأبدية التي سلّطتها عليه الآلهة التي لم تتقبّل عصيانه،فكان قَدَرُه دحرجة الصخرة إلى قمّة الجبل حتى إذا سقطت نزل وعاود دحرجتها إلى الأعلى مجددا، والنتيجة أنّ الجميع صامت من موقعه،إلا أولئك الذين اختاروا طريق الرّفض،فهم جذوة التجدد والانبعاث، ولو تمّ استبعادهم وتصفيتهم.

---

[1] الحاج دواق،التثاقف من مسلوبية الاحتواء إلى معقولية التعارف،الكتاب الجماعي (التثاقف في زمن العولمة)، ص209، 210.

[2] محمود درويش، أوراق الزيتون، ص 12.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديميةISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 787-802

وبذلك يمكن القول إنّ بعد كل هزيمة انتصار وبعد كل موت حياة،لتحيل أسطورة **سيزيف** الذي عذبته الآلهة بالصخرة إلى **نسق الاستلاب/المقاومة**،ويكون العذاب الأبدي لسيزيف معادلا للتغلب على الضعف الإنساني أمام استعباد قوى علوية ،ذلك أن محاولات سيزيف المتكررة لإيصال الصخرة إلى القمة يوهن من وطأة العذاب و يبعث طاقة ضمنية للتحدي والإصرار، فالتوظيف المضمر لأسطورة سيزيف في هذه القصيدة لا يعكس عبثية الحياة بقدر ما يصور كفاح الإنسان وتحديه المستمر وتغلبه على الظروف القاهرة ،فهذه الأسطورة تعدّ تراثا إنسانيا عالميّا ،ولذلك فإنّ توظيفها يكون بمثابة الخروج من الحدود المحليّة سعيا لإيصال صوت الإنسان الفلسطيني إلى أبعد الحدود حيث أعطت« النزعة الإنسانية محمود درويش آفاقا أرحب في البحث عن الحريّة»[1] وبالتالي يتبيّن أنّ هذه القصيدة تطرح رؤية فلسفية تتجاوز العبثية إلى نسق المقاومة و الصمود .

إنّ اعتماد درويش على عرض الأفعال في قوله الشعري بصيغة الجمع الغائب(**وضعوا ،ربطوا،قالوا،أخذوا،رموه،طردوه...**) إشارة إلى تواطؤ قوى دولية مع الكيان الاستعماري لتغيير التاريخ وسلب الأرض،وإدانة الإنسان الفلسطيني بغير حق،لتنقلب الموازين الشعرية منتصرة لضعف الفلسطيني من خلال ربط المشهد الواقعي بالبعد الأسطوري،ما يسمح ببسط مساحة من التفعيل الثقافي نتيجة التمثيل الأسطوري لنسق المقاومة والصمود، ذلك أن توظيف الأساطير في الشعر المعاصر كتقنية تجريبية يحدث حالة من التوازن النفسي الوجودي في نفس الشاعر لتنتقل كرسالة مبطنة إلى المتلقي الذي يربط التوظيف الأسطوري بالقدرة على المقاومة الذاتية تماما كما تحدثه أساطير الموت والانبعاث .

ويستمر السرد الشعري للمشاهد الواصفة لحال الفلسطيني المقاوم ،فيقول درويش: [2]

أخذوا طعامه ،و الملابس و البيارق

و رموه في زنزانة الموتى،و قالوا أنت سارق!

طردوه من كل المرافئ

أخذوا حبيبته الصغيرة،

ثمّ قالوا أنت لاجئ !

تشير الجملة الشعرية /الثقافية (أخذوا طعامه،والملابس والبيارق) إلى إحالة اقتصادية /اجتماعية ،تكشف الحالة المادّية الصعبة التي يعيشها الشعب الفلسطينيّ،جراء سياسة الاضطهاد والتجويع والحرمان،فسلب

[1] أنور الشعر،النزعة الإنسانية في الشعر العربي المعاصر في فلسطين والأردن (2000 –2010) ،ص 24.

[2] محمود درويش،أوراق الزيتون،الأعمال الكاملة،ص12.

الأرض ومصادرة البيوت والأملاك والحصار المفروض هو سلب للحياة، وتجريد من الحقوق، كما يُضمر هذا المقطع الشعريّ مجازات ثقافية كبرى ويحفر حَفرا مستترا عميقا في خلفيات التكوين الإيديولوجي والاجتماعي والنفسي المرتبط بالاغتراب وعدم الاستقرار،فمن خلال المركب الشعري المكثف:"**أخذوا حبيبته الصغيرة**"يمكن فهم عمق حالة الاستلاب الروحيّ والماديّ، فالحبيبة معادل للوطن المعتدى عليه، ومعادل للسكينة المفقودة ،والاستلاب الروحي باغتصاب التراثِ المعنوي ورواياتِ السيادة الوطنية (البيارق) ليواصل الشاعر استقصاء لاوعي النص الشعري وشحنه بدلالات نسقية ممثلة بقيم نصية مخبوءة في الخطاب اللغوي المركز معتمدا على مايسمى–في النقد الثقافي– **بالجمل الثقافية** المكتنزة المكثفة إيديولوجياوضمنيا في مقابل الجمل الشعرية الفنية بقوله: **وقالوا:أنت لاجئ !** ففي هذا القول الشعري كشف لآثار الدمار والضياع التي سببتها نكبة 1948،وما تبعها من صمت عربي وعالمي؛حيث كانت الاهتزازات الارتدادية لعواقب ومخلفات الحرب العالمية الثانية من جهة،وحيث كانت الغلبة للدول الاستعمارية الأوروبية التي باركت ميلاد المستعمر الاسرائيلي وشجعت سيادته الاستيطانية وغطرسته واقتلاعه شعبا كاملا من جذوره،وقد عبرت كلمات مثل(**أخذوا،رموه،زنزانة ،الموتى،طردوه،المرافئ،لاجئ...**)عن تلك التراكمات النفسية الجماعية التي عايشها الشعب الفلسطيني نتيجة الخناق الاقتصادي والسياسي من طرف المؤسسة الكولونيالية،وعن نوبات الحزن والألم التي طالت درويش الطفل/الإنسان أثناء رحلة تهجيره مع المئات من سكان قريته والتحاقه بمخيم للاجئين ،ليحرم من حبيبته الصغيرة؛ أمًّا ووطنا وحلمًا.

وبما أنّ القصيدة تُكتب « نتيجة تفاعل حي بين الشاعر وواقعه, والشاعر إذ يعيش تجربته الجمالية مستغرقا فإنّه يكون محملا بكل ما في عصره وواقعه وكل ما يتصل به من مؤثرات تتفاعل معا لتنتج قصيدة ذات صياغة فنية محكمة»[1] تحكمها اللّغة الشعرية الراقية ،تلك اللّغة التي تنم عن وعي جمالي جديد فتتحرر من مدلولاتها التي وضعت لها في المعجمات أو الأعراف اللّغوية، و تتحرر من الاعتيادي والمألوف لتأسيس نوع معين من الجمالية المتجددة المفعمة بقوة الإيحاء الدلالي، فتتمرد اللغة تمرد شاعرها الذي ألف الرحيل و المطارات و المنافي في إحالة اجتماعية سياسية إلى مشاهد التشرد والتيه والتوق إلى الاستقرار.

[1] رمضان الصباغ، في نقد الشعر العربي المعاصر (دراسة جمالية)،ط1 ، دار الوفاء للطباعة و النشر، الإسكندرية (مصر)، 1998، ص 127.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديميةISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 787-802

ويواصل محمود درويش هندسة نصه الشعري استنادا إلى الأعمدة الثقافية والإيديولوجية والعقائدية ملتحفا بوشاح التاريخ والدين والأسطورة قصد ترميم ما تصدع في نفسيته و نفسية كل إنسان تعرض لنهب الوطن و النفي و التهجير، بقوله :**إنّ الليل زائل** ففي مقطعه الأخير المحتضن للقفلة الشعرية ،تتحول الكلمات الشعرية(الجمل الثقافية) إلى علامات سياقية ذهنية تعري الواقع وتلبسه بالتاريخ ،من خلال التماهي الدلالي والتشابك النصي والتاريخي مع مرجعيات تراثية قبلية، حيث يبث التركيب اللغوي "**نيرون مات ،و لم تمت روما**" شيفرات دلالية تصبّ في مجرى مقاومة الاضطهاد الاستعماري والسادية الظالمة،فروما ظلت باقية تعيش تجددا حضاريا بعد المحرقة التي ارتكبها الإمبراطور السادي **نيرون** في حقها ،حين كان يقف في حالة من التلذذ بمرأى النيران و مسمع صراخ الناس وهم يحترقون،متناسيا أنّ الاحتراق مرحلة سابقة للانبعاث والتجدد كما في أساطير الموت و الميلاد (العنقاء) ،ليتحول نيرون إلى رمز للعدوان على الإنسانية .

أدّى الانحراف الدلالي في القصيدة إلى الربط بين المتخيّل والواقع ،وهو بصيغته المبنيّة على عنصر المفارقة يضع المتلقي أمام ثنائيّة **الحياة/الموت**، التي تعدّ إسقاطا لأساطير الموت و البعث و منها أسطورة(**عشتار وتمّوز**) التي يكون الماء و المطر فيها عنصرا للخلاص و التجدد، وأسطورة (**العنقاء**) التي تجعل من النار و الاحتراق رمزا للبعث،وبذلك تكون المرجعيّات الثقافية الأسطوريّة بمثابة الغطاء الذي يتولّى الشاعر من ورائه تصوير التجاوزات و الانتهاكات التي يمارسها المحتلّ في حقّ شعب فلسطين ،غير أنّ وعي التخطيط الشعري لدى محمود درويش جعله ينتصر لشعبه و للإنسانية من خلال قفلته الشعرية ذات الإحالة الدينية و الأسطورية في آن، من خلال قوله: [1]

وحبوب سنبلة تموت

ستملأ الوادي سنابل.. !

ففي هذا القول الشعريّ تجسيد لمعاني المقاومة و التحدي ، ذلك أنّ السنبلة الواحدة التي تجف كفيلة بملء الوادي سنابل ،فالجفاف موت مؤقت يخفي حياة ونماء وبعثا،وهذا في إشارة إلى أساطير البعث، فكلمة سنابل التي ختم بها النص الشعري تعدّ مفتاحا شعريا ورمزا ثقافيا عند محمود درويش الذي يوظف قاموسا لغويا خاصا وفق استراتيجية أسلوبية تميّز شعره، حيث تتكرر في نصوصه ألفاظ مثل السنابل /القمح /الخبز/الزيتون /البئر .... في إحالة تاريخيّة تؤكد الارتباط بالأرض والأصالة،وإحالة اجتماعية تجسّد

[1] محمود درويش،أوراق الزيتون،ص13.

هوية المجتمع الفلسطينيّ في عاداته اليومية واعتماده على خيرات أرضه في عاداته الغذائيّة ،وإحالة اقتصادية مخبوءة ممثلة في الخناق المعيشي وتدهور الموارد الاقتصادية بفعل الاستلاب ،فدرويش يقوم بفضح العدو المحتل الذي استولى على أراضي الفلسطينيين وحقولهم بطرق توسّعيّة استيطانيّة غير مشروعة ،وفق سياسة سلب الأرض المعادلة لسلب الحياة، غير أنّ نبرة التحدي عند الشاعر كانت قويّة بما تحمله من رسائل العودة واسترداد الأرض ،حيث ينبعث تموز باعثا الربيع والأمل والحياة .

الخاتمة:

بعد المقاربة الثقافية لقصيدة "عن إنسان" لمحمود درويش تبيّن أنّ :

*–المنهج الثقافي من أهمّ المناهج المعاصرة وأكثرها قدرة على تحليل النصوص الشعرية ذات البناء الحداثي المعتمد على تقنيات التجريب ،والتعالق الثقافي.

*–تمكننا الأدوات الإجرائية لهذا المنهج من التوغل إلى النظام اللغوي ليس للكشف عن الفني الجمالي فيه ،بل لرصد المضمر الثقافي وأبعاده .

*–تبيّن من الدراسة الثقافية لقصيدة محمود درويش أنّ النسيج اللغوي للقصيدة كان غزلا مكثفا لخيوط أنساق ثقافية مضمرة منسلة من سياقات سياسية و تاريخية و إيديولوجية ،صممها محمود درويش بمعطيات لغوية و جمالية استنادا إلى توظيف الرموز التراثية والأسطورية ،ليتمكن بذلك من نقل الواقع الحياتي الذي يحياه الإنسان الباحث عن الخلاص والتحرر، وفق وعي شعري حول به الجمالي إلى أبعاد ثقافية مخبوءة.

*–يمثل الواقع الاجتماعي والسياسي المشحون بالتحدي والمقاومة المنطلق في كتابة قصيدة "عن إنسان" ،فحتى وإن كانت القصيدة ذات بعد إنساني شامل متعدد ،إلّا أنّه لا يمكن بالمرة إغفال الإحالات الثقافية في ارتباطها بالهوية والانتماء والتي قدمت رسالة فاضحة للعدوان على أرض فلسطين.

*–هذا وتوصي الدراسة الباحثين بتعميم استخدام المنهج الثقافي في مقاربة مختلف أنواع الخطابات الإبداعية والفنّية العربية والفلسطينية خصوصا من شعر ونثر ومسرح وفنون تشكيلية ،نظرا لقدرته على الغوص في عمق هذه الأنواع الفنية واستخراج الأنساق الثقافية المضمرة فيها.

قائمة المصادر و المراجع:

أولا: الكتب

1) أنور الشعر،النزعة الإنسانية في الشعر العربي المعاصر في فلسطين والأردن2000–2010،ط1 ،مطبعة السفير ،منشورات وزارة الثقافة،الأردن ،2016.

2) أنور الشعر، توظيف التراث في الشعر الفلسطيني المعاصر(2000- 2010) ،مطبعة السفير ،الأردن،ط1، 2013.

3) الحاج دواق،التثاقف من مسلوبية الاحتواء إلى معقولية التعارف ،الكتاب الجماعي (التثاقف في زمن العولمة)،إشراف عبد المجيد عمراني،منشورات مخبر حوار الحضارات والعولمة،جامعة باتنة1 ،مطبعةمؤسسة سرار للطباعة الصناعية ،باتنة،الجزائر ،2011.

4) حسام الدين علي مجيد،إشكالية التعددية الثقافية في الفكر السياسي المعاصر-جدلية الاندماج والتنوع-،منشورات مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت ،ط1 ،2010.

5) حفناوي بعلي،مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن (المنطلقات،المرجعيات ،المنهجيات) ،ط1 ،دار الاختلاف للنشر ،الجزائر.

6) رضا عامر،المناهج النقديّة المعاصرة،ط1 ، دار أسامة للنشر،الأردن ،2020 .

7) رضا عامر،قضايا النص الشعري الحديث و المعاصر،دار أسامة للنشر،الأردن،ط1 ،2018 .

8) رمضان الصباغ، في نقد الشعر العربي المعاصر (دراسة جمالية) ،ط1 ، دار الوفاء للطباعة و النشر، الإسكندرية (مصر) ، 1998.

9) شعيب حليفي،هوية العلامات في العتبات و بناء التأويل،ط1 ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ،المغرب ،2005.

10) مجموعة من المؤلفين، نظرية الثقافة ،ترجمة علي سيد الصاوي،د.ط ،سلسلة كتب عالم المعرفة ،منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب ،الكويت ،يوليو 1997.

11) محمود درويش، أوراق الزيتون،الأعمال الكاملة، المجلد الأول ،ط14 ، دار العودة ،بيروت ،1996.

12) نورية الرومي ،التواصل الثقافي والعولمة مفاهيم و آليات و رؤى، الكتاب الجماعي (التثاقف في زمن العولمة)،إشراف عبد المجيد عمراني،منشورات مخبر حوار الحضارات ،و العولمة،جامعة باتنة1 ،مطبعةمؤسسة سرار للطباعة الصناعية ،باتنة،الجزائر ،2011.

13) يوسف عليمات،النسق الثقافي قراءة في أنساق الشعر العربي القديم،د.ط ،منشورات وزارة الثقافة ،عمان ،الأردن ،2014.

ثانيا: الرسائل والمذكرات

1) رضا عامر،سيميائية العنوان في ديوان سنابل النيل لهدى ميقاتي،مذكرة ماجستير تخصص أدب حديث ومعاصر،إشراف أحمد جاب الله، جامعة محمد خيضر بسكرة،2008 .

ثالثا: المقالات

1) عائشة بومهراز،نحو وعي نقدي بقراءة ثقافية للنص الإبداعي، مجلة الناص، منشورات جامعة جيجل،الجزائر، ع9، أفريل 2010 .

رابعا: أشغال الملتقيات

1) معتز سلامة أحمد عبد الله،قراءة ثقافية في معلقة جاهليّة (معلّقة النابغة الذبياني نموذجا) ،كتاب المؤتمر الدولي الخامس لكليّة الآداب"التعددية الثقافيّة في اللغة والأدب،ج2،جامعة الزيتونة الأردنيّة ،الأردن،17-19نوفمبر 2015.

2) مفيدة إبراهيم علي عبد الخالق،الناقد بين التعددية الثقافية و تعددية النظرية النقدية، كتاب المؤتمر الدولي الخامس لكليّة الآداب"التعددية الثقافيّة في اللغة و الأدب،ج1 ،جامعة الزيتونة الأردنيّة ،الأردن،17-19نوفمبر 2015.